نص " انعكاس" لبلسم الجبوري ما بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه الدراسة النص القصصي الذي يتخذ عنوان "انعكاس" للكاتبة الليبية بلسم الجبوري من زاوية كونه ومضة قصصية أم قصة قصيرة جدا، وسأبدأ بتناول هذا النص في حد ذاته، ثم سأتنقل فيما بعد إلى تناول هويته التجنيسية داخل فن القص، وها هو النص:

تقدمت ورأيتها تتقدم تلك العجوز.. إلى أن اصطدمت بقطعة زجاج معلقة!! فأدركت أنها انعكاس لصورتي.

يقدم لنا نص "انعكاس" صورة نفسية وإبداعية لمفهوم الانعكاس في حياتنا، وهو مفهوم يدل على عكس السير وعلى الارتداد وعلى صورة المرآة وعلى تجلّي الذات فيما وفِيمَنْ حولها.

في الجملة الأولى، لا توجد مرآة، وإنما هي رؤية حقيقية بعيدا عن أي انعكاس على أي سطح، سواء أكان هذا السطح زجاجا أم ماء أم أي سطح آخر قابل لأن ينقل لنا صورة الشخص أو الشيء الذي يقف أمامه. فهناك راوية تسير للأمام وعلى البعد منها – وهو بُعد ندركه من خلال استعمال اسم الإشارة "تلك" – توجد امرأة عجوز تسير في نفس الاتجاه. وهذا البعد يوحي لنا بالتوازي بينهما، وكأن المسافة الفاصلة بينهما مسافة زمانية بقدر ما هي مسافة مكانية. واستعمال تعبير "تلك العجوز" يوحي بقدر من الاستهجان أو التأكيد على الغيرية: أي أن هذه العجوز امرأة مختلفة تماما عن الراوية ولا يوجد مجال للتشابه بينهما.

وعندما نكمل باقي الجملة الأولى بداية من "إلى" نجد أن الراوية تستعمل الفعل "اصطدمت" الذي يوحي بأنها كانت تسير مغمضة العينين أو غارقة في أفكارها أو في إبعاد "تلك العجوز" نفسيا عن نفسها. وهذا الاصطدام يكون "بقطعة زجاج معلَّقة"، الأمر الذي يُدخل مفهوم الانعكاس في

النص ويبرزه في آن: ربما كانت قطع الزجاج موجودة منذ البداية، ولكن استغراق الراوية أو غفلتها أو انغلاقها على صورتها "الشابة" جعلها لا ترى المرايا الموجودة في كل مكان. وقد تكون المرايا هنا مرايا رمزية يُخفيها الاستغراق أو الانغلاق أو عدم النظر إلى الذات نظرة مجردة بعيدة عن أوهام الشباب أو أوهام خداع الذات.

ونتيجة لهذا الاصطدام، تبدأ الراوية في العودة إلى وعيها، ويتولد عن هذا الوعي فعل الإدراك الذي تبدأ به الراوية الجملة الأخيرة التي تمثل نهاية النص، إذ تدرك هذه الراوية أن "تلك العجوز" انعكاس لصورتها وأنها هي بالفعل امرأة عجوز.

ولكنها لا تقول إن هذه العجوز "انعكاس لي"، وإنما تقول "انعكاس لصورتي"، وشتَّان ما بين الانعكاس الذي يكون للذات والانعكاس للصورة، فانعكاس الذات أو الشخص نفسه على سطح المرآة يكون أقرب لتمثيل هذه الذات تمثيلا حقيقيا، ولكننا هنا أقرب لانعكاس أشبه بالتمثيل أو المحاكاة

الأفلاطونية، فيرى أفلاطون أن الأدب ليس محاكاة للواقع، وإنما هو محاكاة لصورته، فالواقع موجود في عالم المُثُلِ، وهو عالم غير متاح لنا، فعالم المثل هذا توجد فيه الأشياء في وضعها الأصلي، كأول كرسي صُنع في التاريخ أو تمثَّل في مخيّلة الخالق أو الصانع، كأول كمبيوتر تمت صناعته أو تمّ تصوُّره في مخيِّلة مخترعيه على سبيل المثال، وتأتي أجهزة الكمبيوتر الموجودة لدينا كصورة لهذا الكمبيوتر المثال. وهنا تكون صورة الكمبيوتر كما نراها أو نكتب عنها تبعد ثلاث درجات عن الأصل: فهناك الكمبيوتر المثال، وهناك الكمبيوتر الموجود في الواقع، وهناك الكمبيوتر كما يتبدّى في مخيِّلة الكاتب عندما يكتب عنه.

وفي النص هنا، توجد الراوية وتوجد صورتها وتوجد صورة هذه الصورة كما تتجلى في المرأة العجوز. أي أن الراوية تقوم بإبعاد نفسها عن المرأة العجوز في نهاية النص أيضا، أو هي تتنصل منها بأن تنسبها لصورتها كما تتبدّى في أعين الناس ولا تنسبها لنفسها.

وهذا يثير لدى القارئ قضية تتعلق بصورة الذات عن نفسها وصورة الذات كما تتبدى في أعين الآخرين، والمرآة هنا عين من هذه الأعين التي لا تنتمي للراوية، وإنما تنتمي للآخرين. فصورة الذات عن نفسها قد تختلف عن الصورة التي يراها بها الآخرون، دون أن نتيقن من مدى صدق أي صورة منهما أو منها، فالآخرون يختلفون فيما بينهم أيضا بالنسبة لرؤية نفس الشيء أو نفس الشخص. وفي النص هنا، يبدو أن الراوية تدرك أنها ليست بهذا الدرجة من العجز أو الشيخوخة التي تظهر بها أمام الناس وأن قلبها أكثر شبابا من مظهرها.

ومن الملاحظ أن النص بشكلها الحالي عبارة عن قصة قصيرة جدا وليس ومضة قصصية، وهذا لا ينتقص من جمالها وجودتها، وإنما يتعلق بالخلط الماثل لدي كثيرين جدا بين الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا، والكثيرون لهم العذر في ذلك، فالجهد التنظيري الذي نقوم به في مجموعة سنا الومضة القصصية لم يكتمل بعد، وإن كنا نشرنا عدة

مقالات ذات طابع تنظيري خاص بالومضة القصصية في المجلة، والمقالات والدراسات التطبيقية الموجودة في المجلة أيضا بها إشارات هنا وهناك إلى طبيعة الومضة القصصية.

ما الذي يجعلني أقول بأن هذا النص عبارة عن قصة قصيرة جدا وليس ومضة قصصية؟ من المفترض أن تكون الومضة القصصية إبرازا للحظة زمنية واحدة في حياة الشخصية. وهذه اللحظة موجودة بالفعل في النص وتتمثل في الجملة الأخيرة منه: "فأدركتُ أنها انعكاس لصورتي". ولكن هذه اللحظة يتم تقديمها في نهاية خط زمني ممتد سبقته لحظات كثيرة قبله، سواء أكانت هذه اللحظات تم ذكرها بطريقة مباشرة أم تمت الإشارة إليها ضمنيا من خلال النقطتين الأفقيتين (ومن الأدق أن تستخدم الكاتبة ثلاث نقاط أفقية هنا، لأن النقطتين الأفقيتين يتم استعمالهما – كما جرى العرف في السنوات الأخيرة لدى الكتاب العرب للدلالة على التوقف لالتقاط الأنفاس أو الدلالة على التوقف الذي يُحْدِثُ نوعا من التشويق)، فهاتين النقطتين تدلان على استمرار تقدم

الراوية والمرأة العجوز للأمام في الزمان وفي المكان، وهو تقدم يستغرق فترة زمنية طويلة نسبيا.

وهذه اللحظة الزمنية الواحدة ينبغي أن تكون قابلة لأن يتم تصويرها بفلاش واحد من فلاشات الكاميرا. والومضة في الإنجليزية – التي تم ترجمة مصطلح الومضة في العربية منها – تعني الفلاش، وهي مأخوذة من فلاش الكاميرا. والنص هنا يمكن تصوير الحدث الوارد فيه من خلال لقطة مستمرة one shot بكاميرا فيديو وليس بكاميرا تصوير فوتوغرافي.

ولو قمنا بتصويره بكاميرا تصوير عادية سنضطر لالتقاط عدة صور له ونضعها بجانب بعضها البعض أو تحريكها من خلال تقنية الرسوم المتحركة. لو قالت الكاتبة على سبيل المثال: "اصطدمت بقطعة زجاج معلقة!! فأدركت أن المرأة العجوز التي كانت تخطو بجانبي انعكاس لصورتي"، سيصير النص في هذه الحالة ومضة قصصية وليس قصة قصيرة جدا، لأن بؤرة تركيز النص ستكون على

لحظة الإدراك، على لحظة الاكتشاف، على لحظة التعرُّف التي تتعرف فيها الراوية على شيخوختها فجأة، وكأنها كانت تحتاج لصدمة فعلية أو معنوية لتفيق وترى صورتها على حقيقتها.

obeikandl.com